تجسّد معلّم الإيمان والمحبّة

الأرشمندريت د. جاك خليل
معهد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ اللاهوتيّ – البلمند

أنا أَعْلَمُ أَنَّ المسِيَّا، أي المسيح، يأتي؛ فمتى جَاءَ ذاك يُخْبِرُنَا بكلِّ شيءٍ (يو ٤: ٢٥).

هذا ما قالته المرأة السامريّة عندما كانت تُحاور الربّ يسوع عند بئر يعقوب. وفي جوابه أكّد الربّ يسوع لها أنّه هو المسيّا الذي سيُعلّم كلّ شيء.

لقد تجسّد الربّ يسوع المسيح وجاء إلى العالم ليسلّمنا تعليمًا لم ينقله أحدٌ قبله على وجه التمام. وهذا التعليم هو الذي سيكون خاصّة مميزّة للذين يؤمنون به. هؤلاء تسلّموا "ناموس المسيح"، أي تعليمه، بحسب المعنى العبريّ لكلمة "تُورَهْ". أمّا ناموسه فهو "ناموس الإيمان"، ووصيّته المحبّة.

تظهر أهمّيّة الثنائيّ المسيحيّ، الإيمان والمحبّة، في ما يكتبه الرسول بولس في رسالته إلى أهل غلاطية؛ فبعد أن توسّع في تأكيده على عدم جدوى الناموس الموسويّ في تبرير الإنسان، مركّزًا مواجهته للناموس على الختان الذي هو علامة العهد، شدّد على أنّ الإيمان بيسوع المسيح هو المعيار الوحيد للتبرير. ثمّ لخّص هذه الحقيقة في قوله: "لأنَّ في المسيح يسوعَ لا الختانُ يَنفَعُ شيئًا ولا الغرلةُ، بلِ الإيمانُ العاملُ بالمحبّةِ" (غل ٥: ٦).

لكنّنا نعلم أنّ وصيّة محبّة الله والقريب ترد في الناموس الموسويّ أيضًا، إذ تأتي الأولى بين الوصايا العشر. ما الجديد، إذًا، في وصيّة المحبّة التي سلّمنا

إيّاها المسيح؟ وكيف يربط الرسول بولس بين الإيمان بيسوع المسيح وتطبيق وصيّة المحبّة؟ وما هي بالتحديد هذه العلاقة التفاعليّة بين الإيمان والمحبّة اللتين تعلّمناهما من رئيس الإيمان ومعلّم المحبّة؟

نال موضوع المحبّة المسيحيّة حيّزًا كبيرًا في الدراسات الكتابيّة عبر التاريخ. ويأتي مؤتمرنا هذه السنة ليضيف حلقة أخرى من الأبحاث والدراسات المتخصّصة في هذا الموضوع. ولقد بدا لي من الضروريّ أن أتطرّق إلى وصيّة المحبّة من منظار جديد يضيف شيئًا ولو يسيرًا على واقع البحث اليوم. لذلك، أردت أن أسلّط الضوء في بحثي على العلاقة التفاعليّة التي تربط بين فضيلتَي الإيمان والمحبّة، اللتين تجدّدتا بيسوع المسيح، وأصبحتا المعيار الأساسيّ لتبرير الذين في المسيح يسوع.

من أجل توضيح هذه المسألة، سأتطرّق أوّلاً إلى ما يعلّمه الرسول بولس عن طبيعة الإيمان وخصائصه، لكي أشرح في ما بعد علاقة المحبّة بالإيمان، وأهمّيّة عمل المسيح الخلاصيّ لتعلّم اقتناء هاتين الثمرتين الروحيّتين، الإيمان المبرّر والمحبّة المخلِّصة.

قبول البشارة والتجاوب مع عمل المسيح

الإيمان هو تجاوب الإنسان مع كلمة المسيح (رو ١٠: ١٧). يتكلَّم المسيح واضعًا كلمته في فم الرسول (٢ كو ٥: ١٩–٢٠؛ ١٣: ٣)، لأنّ الرسولَ خادمٌ لعمل الله (٢ كو ٥: ١٨)، من حيث أنّه ينقل الدعوة إلى الشعوب ليحسِّنوا علاقتهم بالله. لكنّ الله ذاته هو الذي يكرز ويدعو إلى ذلك (٢ كو ٥: ٢٠؛ ١ تس ٢: ١٣). وبقوله "كأنَّ الله يعظ بنا" و"نطلب عن المسيح، تصالحوا مع الله" (٢ كو ٥: ٢٠)، يشدِّد الرسول بولس بوضوح على أنَّ الله ينتظر من الإنسان أن يقبل عمله؛ فإنّ الله المحبّ البشر والكلّيّ الصلاح الذي جعل ابنه "الذي لم يعرف خطيئةً خطيئة من أجلنا لنصير نحن برّ الله فيه" (٢ كو ٥: ٢١)، لم يتوقّف

عند هذه التضحية، بل تابع مبادرته، وها هو يرجو الناس أن يقبلوا العطيّة. لهذا السبب لا يتردّد الرسول بولس في القول: "ولكنّ الكلّ من الله" (٢ كو ٥: ١٨)، ذلك لأنّ الله قدَّم ابنه من أجل تبرير الإنسان[١]، ومن ثمّ، بدل أن ينتظر تقدمةً ملائمة من جهة الإنسان، هو من يرجو الإنسان أن يقبل الخيرات التي يقدِّمها له مجّاناً (٢ كو ٥: ٢٠).

"الكلّ من الله"، هو أتمّ كلّ الأشياء، ولم يبقَ للإنسان إلاّ أن يقبل الهبة؛ لذا يصحّ القول، إنّ الرسول الذي يخدم عمل الله هذا من خلال كرازته بالإنجيل[٢]، يحمل كلمة المصالحة التي حقَّقها الله، ويرجو الإنسان، باسم المسيح، أن يتجاوب مع مبادرة الله، لكي يتبرَّر (أنظر رو ٦: ١٦). لكنّ جواب الإنسان المتوقَّع لا يكون بحفظه الناموسَ الموسويّ كي يتحقّق التبرير، لئلاّ يقع في جهل مماثل لجهل اليهود الذين سعوا للحصول على برّهم الخاصّ لا على برّ الله (رو ١٠: ٣). أمّا في ما يتعلّق بعمل الله الخلاصيّ، فالناموس الموسويّ لن يشكِّل مجدّدًا معيار الحصول على التبرير، لأنّه قد استعلن جليًّا أنّ المسيح هو معيار التبرير بالإيمان؛ فالناموس وحده، بدون المسيح، يعجز عن أن يبرِّر أيّ إنسانٍ (غل ٣: ٢١؛ أنظر رو ٨: ٣)، "لأنّ المسيح هو هدف الناموس للبرِّ لكلّ من يؤمن" (رو ١٠: ٤؛ غل ٣: ٢٤).

على الإنسان، إذًا، أن يسمع كلمة المسيح، وأن يتعلَّم كلمة إنجيله وعمله الخلاصيّ، كي ينتهي به المطاف إلى الإيمان بقوّة، والاعتراف جهارًا بأنَّ المسيح هو الربّ[٣]. هذا ما يلخّص خبرة الإيمان، وهذه الخبرة تشرح القول "إنّ الإيمان يأتي من السماع" (رو ١٠: ١٧). تبدأ خبرة الإيمان بقبول كلمة

---

(١) يعلّق القدّيس يوحنّا الذهبي الفمّ على هذه الآية بالقول: "ولكنّ كلّ الأشياء من الله. لا شيء منّا؛ فإنّ غفران الخطايا والتبنّي والمجد غير الفاسد قد أُعطيت لنا من لدُنه" (PG 61, 475-476).

(2) O. Hofius, "Gott hat unter uns aufgerichtet das Wort von der Versöhnung (2 Kor 5,19)", *Paulusstudien*, 17-18.

ومن هذا المنظار يشرح القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم الآية ذاتها (PG 61, 475-476).

(3) J. Fitzmyer, *Romans*, 137.

البشارة (١ كو ١٥: ١١، ١٤)، وتنتهي بالطاعة[٤].

الإيمان كطاعة

من خلال العلاقة المترابطة بين الإيمان بالمسيح وطاعته، يغدو المسيح ربًّا ومخلِّصًا للإنسان[٥]. يؤكِّد الرسول بولس أنَّه أخذ النعمة والرسوليّة من المسيح، كي يقيم "طاعة الإيمان"[٦] في جميع الأمم (رو ١: ٥، ١٦: ٢٦؛ رج رو ٦: ١٧؛ ١٥: ١٨؛ ٢ كو ١٠: ٥). عندما يقبل الإنسان المسيح ويعترف به ربًّا وسيّدًا على حياته، يتحوّل عندها قبولُه إلى خضوع، واعترافُه إلى التزام بكلمة المسيح. هذه الحقيقة تتّضح أكثر في عبارة الرسول بولس: "... على طاعة اعترافكم بإنجيل المسيح" (٢ كو ٩: ١٣). إذًا، لا يعتبر الرسول بولس الإيمانَ قبولاً فكريًّا وحسب لعبارة "المسيح هو الربّ"، فالإيمان عنده هو أن يكرّس الإنسان كلّ حياته لله (في ٣: ٧–٨)، وأن يطيع كلمته ومشيئته[٧]، وهذا ما يجب أن يظهر في علاقات الإنسان مع الله، ومع إخوته في البشريّة، ومع كلّ الخليقة[٨].

الإيمان كطاعة هو نهج حياةٍ مختلف عن طريق الخطيئة (رج رو ٦: ١٦–١٧). عندما يؤمن الإنسان، يلتزم بالتعليم الذي سمعه وقبِلَه (رو ٦: ١٧).

(٤) رو ١: ٥؛ ٦: ١٧؛ ١٦: ٢٦؛ أنظر أيضًا رو ١٠: ١٦؛ ٢ كو ٩: ١٣؛ ٢ تس ١: ٨؛ ٣: ١٤؛ عب ٥: ٩؛ رج أيضًا أع ٦: ٧؛ ١ بط ١: ٢.

(٥) هذه الحقيقة تظهر من خلال رو ١٤: ٦–٩، وخاصّة في آ ٩ حيث يقال بصريح العبارة أنّ هدف التدبير الخلاصيّ الذي أتمّه المسيح هو أن يكون ربًّا. أمّا الآيات السابقة فهي تشدّد على الأهمّيّة الكبرى لطاعة الربّ، لأنّها السبيل المضمون للخلاص (رج آ ١٤: ٤).

(٦) بحسب رأي م. زرفيك و م. غرونوفر.

(M. ZERWICK & M. GROSVENOR, *A Grammatical Analysis of the Greek New Testament*, 1996, 457).

تحمل الإضافة في التعبير "طاعة الإيمان"، ὑπακοὴ πίστεως، أكثر من معنى: فهي إضافة المصدر، فيُحتمل أنّ ما يقصده الرسول هو الطاعة التي تصدر عن الإيمان، وربّما تكون إضافة المفعول به، أي إطاعة الإيمان، أو إضافة تفسيريّة، بمعنى الطاعة التي هي الإيمان بحدّ ذاته.

(7) J. FITZMYER, *Romans*, 137, cf. O. KUSS, “Der Begriff des Gehorsams im Neuen Testament”, *ThGl* 27, 1935, 699-700.

(8) J. FITZMYER, *Romans*, 137.

والإيمان كطاعةٍ هو خضوع الإنسان التامّ لمن صار سيّد حياته، إلى درجةٍ ينتفي عندها كلّ اعتمادٍ على الذات، لئلا يقع الإنسان في الافتخار بقدراته؛ "فالافتخار قد انتفى" (رو ٣: ٢٧). هذا الإيمان هو شرط التبرير، لا وصايا الناموس الموسويّ[٩]. إنّ التبرير لا يُتمَّم بتعبٍ وجهد، أي بتطبيقٍ دقيقٍ لأعمال الناموس وفرائضه، وإنّما بواسطة الإيمان (رو ٣: ٢٧) الذي هو قبل كلّ شيء خضوعٌ، وبالتالي، ما من هامشٍ بعد الآن للافتخار. هنا يكمن الاختلاف بين "ناموس الإيمان" (رو ٣: ٢٧) وناموس الوصايا، الذي بموجبه من يُطبِّق الوصايا يحصل على المكافأة التي يستحقّها، وتُعتَبَر المكافأة إنجازًا.

المحبّة و"ناموس الإيمان"

بحسب "ناموس الإيمان"، يحيا الإنسان في البرّ عندما يُطيع كلمة المسيح، بغضّ النظر عن هويّته، أي أكان يهوديًّا أو أمميًّا. وتظهر هذه الطاعة للمسيح بالتمرّس على المحبّة التي تبقى أسمى الوصايا، لأنّه يتوجّب على من يؤمن بالمسيح أن يحبّ الآخرين: "لا تكونوا مديونين لأحدٍ بشيء إلا بأن يحبّ بعضكم بعضًا" (رو ١٣: ٨؛ أنظر غل ٥: ١٣). إنّ طاعة المسيح التي تظهر في تطبيق وصية محبّةِ القريب تكمّل كلّ ناموس، كما يعلّم الرسول بولس (أنظر غل ٥: ١٤؛ رج رو ١٣: ٩)، والمعنيّ بالناموس هنا هو الناموس الموسويّ و"ناموس المسيح" على حدّ سواء، وأيضًا أيّ ناموس أخلاقيّ ومدنيّ على وجه عامّ.

لا شكّ بأنّ الرسول بولس يعتبر محبّة القريب بمثابة كمال الناموس الموسويّ[١٠]. وهو بالتأكيد يتطرّق إلى الناموس الموسويّ، تحديدًا في رو ١٣: ٨–١٠؛ فتعداد فحوى اللوح الثاني من الوصايا العشر[١١] (آ ٩) يُبيّن خطأ

(9) O. Kuss, “Der Begriff des Gehorsams im Neuen Testament”, *ThGl* 27 (1935) 699-700.

(١٠) رو ١٣: ٨–١٠؛ رج غل ٥: ١٤؛ ١ تم ١: ٥؛ كول ٣: ١٤.

(١١) إقرأ خر ٥: ١٧–٢١ بحسب الترجمة السبعينيّة وأهمل آ ٢٠.

اعتبار الإشارة هنا إلى ناموس الأخلاق العامّ[١٢]. كما يُلاحظ، في هذا السياق، أنّ رسول الأمم، في كلامه على المحبّة، يتبع تعليم المسيح عن كمال الناموس الموسويّ في المحبّة، الذي يُسلّم في مت ٥: ١٧–٤٨، التي تشكّل نورًا ساطعًا يضيء مفهوم المحبّة المسيحيّ. ومن ناحية أخرى، يتقاطع هذا التعليم مع تقليدٍ نصادفه عند هِلاّل، الذي يُمثّل الجناح المنفتح في الأدب الرابّينيّ، ولكنّه يرتبط عنده دائمًا مع التشديد على طاعة الناموس طاعةً عمياء[١٣]، وأنّ الناموس الموسويّ هو المقصود يتأكّد من الدراسة النحويّة لسياق الآية. إنّ اسم الفاعل "المحبّ"، ὁ ἀγαπῶν، في رو ١٣: ٨، يتطلّب مفعولاً به[١٤]، لذلك يجب أن تُعتبر كلمة "آخر" مفعولاً به لاسم الفاعل "المحبّ"، لا بمثابة صفة تحدّد الكلمة التالية "ناموس"، فيصبح المعنى "الناموس الآخر". لا يسمح النصّ بإمكانيّة هذا الاحتمال. لم يُذكر أيّ ناموس بشكل واضح في المقطع السابق، وبأكثر دقّة، لم تستعمل كلمة "ناموس" البتّة بعد ١٠: ٥[١٥]. يبقى كلامًا غريبًا عن موضوع المقطع ذاك الذي يعتبر المحبّة تكمّل "الناموس الآخر"[١٦]، حيث يكون المقصود بِـ"الناموس الآخر" واحدًا من الاحتمالات الثلاثة الآتية:

أ – ما تبقّى من الناموس، أي الوصايا الأخرى (١٣: ٩) ما عدا وصية المحبّة[١٧]؛

(12) E. Käsemann, *An die Römer*, 1980, 348. Π. Τρεμπέλα,*Ὑπόμνημα εἰς τὰς ἐπιστολὰς της Καινῆς Διαθήκῆς, τόμος* 1, 192.

(13) E. Käsemann, *An die Römer*, 1980, 348-349. H. Strack & P. Billerbeck, *Das Evangelium nach Matthäus erläutert aus Talmud und Midrasch*, 1961, 357-359.

(14) E. Käsemann, *An die Römer*, 1980, 348.

(15) C.E.B. Cranfield, *Romans - a Shorter Commentary*, 1985, 327.

(١٦) يلاحظ E. Käsemann, *An die Römer*, 348، وهو محقّ في ذلك، أنه يجب ربط ἕτερος بكلمة πλησίον في آ ٩ج وآ ١٠؛ فللكلمتين النفس ذاته، كما في ٢: ١؛ ١ كو ٤: ٦؛ ١٤: ١٧؛ لذا من الخطأ ربطها هنا بكلمة νόμος.

(١٧) هذا رأي كلّ من:
J. C. V. Hofmann, *Die heilige Schrift Neuen Testaments*, 3. Teil (Brief an die Römer), 1868, 542-3, Th. Zahn, *Der Brief des Paulus an die Römer* (1910) 3. Aufl. 1925, 563 n. 81.

ب – ناموس المسيح[١٨]؛

ج – الناموس الآخر، باعتبار أنّ الناموس الموسويّ هو المقصود بالناموس الآخر، بالمقارنة مع الناموس الرومانيّ الذي يفرض الطاعة "للسلاطين الفائقة" (١٣: ١–٧)[١٩].

ما أراد الرسول بولس التشديد عليه في آ ٨، يفسّره في آ ٩ بقوله إنّ محبّة القريب تلخّص كلّ وصايا الناموس الموسويّ، وبالتالي من يحبّ يتمّم الناموس من خلال محبته للآخر. وهكذا، يتمكّن المؤمن المحبّ من أن يقيم الناموس الموسويّ، لا أن يُبطله.

في مكانٍ آخر، يشدّد الرسول على أنّ المحبّة تكمّل لا الناموس الموسويّ وحسب، بل "ناموس المسيح" أيضًا (غل ٦: ٢)[٢٠]. في غل ٥: ١٤، يقول الرسول بولس على وجه عامّ: "لأنّ كلّ ناموس في كلمةٍ واحدةٍ يُكمّل: أحبب قريبكَ كنفسكَ". ثمّ، وبأسلوب التضمين، يعود في غل ٦: ٢ إلى موضوع المحبّة الذي كان سبب التوسّع في غل ٥: ١٣–٢٦، ليوضّح أنّ المسيحيّ، بمحبته للإخوة، يطبّق "ناموس المسيح" على وجه تامّ. وبهذا يشير إلى أن كلّ ما كتبه في الإصحاح الخامس من الرسالة إلى غلاطية عن حياة المسيحيّ بحسب الروح لا بحسب الجسد، يتلخّص بالسلوك في المحبّة الكاملة. وعلى نحو مشابه، يطابق الإنجيليّ يوحنّا في رسالتيه الأولى والثانية بين المحبّة وبين أن يعيش المرء وفقًا لوصايا المسيح (١ يو ٥: ٣؛ ٢ يو ١: ٦).

بناءً ما سبق، يمكن القول إنّ الإيمان كطاعة للمسيح يربط الإنسان "بناموس

---

(18) Gutbrod, art. νόμος, in *ThWNT* IV, 1069, 15f.- P. Feine, *Das gesetzfrei Evangelium des Paulus*, 1899, 191.
هذه المراجع مذكورة عند W. Marxsen, “Der ἕτερος νόμος Röm.13,8”, in: *ThZ* 11, 1955, 231.

(19) هذا بحسب تفسير W. Marxsen, “Der ἕτερος νόμος Röm.13,8”, 230-237، ويتبعه O. Merk, *Handeln ausGlauben*, 165.

(20) Cf. W. Schrage, Probleme paulinischer Ethik anhand von Gal 5,25 - 6,10, *La foi agissant par l’amour (Galates 4,12 – 6,16)*, Série Monographique de « Benedictina » - Section Biblico-Oecuménique, « Benedictina », Abbaye de S. Paul, Rome, 1996, 187.

المسيح" (١ كو ٩: ٢١)، الذي يُسمّى أيضًا "ناموس الإيمان" (رو ٣: ٢٧)، والذي يكتمل بوصيّة المحبّة.

الصفة الديناميّة والمستمرّة للإيمان

تظهر ماهيّة العلاقة بين الإيمان والمحبّة بأجلى بيان في غل ٥: ٦: "لأنّه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئًا ولا الغرلة بل الإيمان العامل بالمحبّة". يجب أن يُثمر الإيمان أعمال محبّة، كما يتبيّن من استعمال اسم الفاعل(٢١) "العامل" (ἐν+ἔργον = ἐνεργουμένη)، وهو مقيّد نحويّ لكلمة "إيمان". ولأنّ هذا التعريف للإيمان يرد في الحاضر المستمرّ (participium coniunctum)(٢٢)، يتعلّق الأمر حينها بخاصّيّة تلازم الإيمان دائمًا(٢٣). بكلامٍ آخر، بمعزلٍ عن هذا التحديد، أي عندما لا يكون الإيمان عاملاً بالمحبّة، يختلف عن جوهره الضروريّ الذي يميّزه. وعلى ضوء هذا التحديد، يتبيّن الخطأ في ما أورده الإعلان المشترك اللوثريّ – الكاثوليكيّ بأنّ "الإيمان ينحصر في نقطةٍ زمنيّة معيّنة، هي لحظة قبول هبة الإيمان، وكلّ ما يسبق وكلّ ما يتبع هذه النقطة الزمنيّة (أي ظهور الإيمان من خلال أعمال المحبّة) لا يشكّلان شرطًا للتبرير ولا يستحقّانه"(٢٤). إنّ تعليم الرسول بولس لواضح أشدّ الوضوح في غل ٥: ٤–٦، حيث يقول ما فحواه: كلّ الذين يبرّرون بالناموس لا ينتمون في ما بعد للمسيح، لأنّنا نحن المسيحيّين ننتظر من الإيمان رجاء التبرير، لأنّه في العهد الجديد الذي خُتم بدم المسيح، لا معنى لختان العهد القديم ولا للغرلة في ما يتعلّق بتبريرنا، فإنّما نحن نتبرّر بالإيمان الذي يظهر بالأعمال الموجّهة من المحبّة الصادقة دون رياء. يبدو واضحًا جدًّا من خلال غل ٥: ٦، أنّه، بدل

(21) Participium coniunctum.

(٢٢) في ما يختصّ بهذه الحالة رج: G. Mandilaras, The Verb in the Greek Non-literary Papyri, 96-97.

(٢٣) رج موازاة الأجزاء في قول الرسول "عمل الإيمان وتعب المحبّة" (١ تس ١: ٣)؛ أنظر أيضًا "عمل الإيمان" (٢ تس ١: ١١).

(٢٤) عقيدة التبرير – الإعلان المشترك للرابطة اللوثريّة العالميّة والكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة، ٤، ٣، ٢٥.

الختان الذي يشكّل علامة العهد بين الله وإسرائيل، يحلّ كشرطٍ للتبرير، لا الإيمان ببساطة، بل "الإيمان العامل بالمحبّة". لا ينحصر الإيمان، إذًا، بلحظة قبول كلمة الإنجيل، بل يشكّل موقفًا ديناميًّا يمسّ كلّ وجود الإنسان. لذلك، وجد الرسول بولس خير دعامة لما يعلّمه في حب ٢: ٤: "أمّا البارّ فبالإيمان يحيا" (رو ١: ١٧؛ غل ٣: ١١). على الإيمان أن يلعب دورًا محوريًّا في حياة الإنسان المسيحيّ، وأن يغدو ناموس حياته.

نستنتج ممّا سبق أنّه لا يكفي أن يبقى الإيمان موقفًا فكريًّا ومن دون أعمال، بل يجب أن يستعلن بالأعمال الصالحة، تمامًا مثلما يشدّد يعقوب الرسول في رسالته (يع ٢: ١٤–١٩). أمّا أعمال الإيمان فلا تكون في إتمام وصايا الناموس بعبوديّة، بل "بالمحبّة"، وبأكثر دقّةٍ، في عبوديّة البرّ. هذه هي النقطة التي تميّز المسحيّة، بحسب تعليم الرسول بولس، عن يهوديّة الهيكل الثاني.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الرسول بولس وبهدف التشديد على الدور الجوهريّ والتكميليّ للمحبّة الفاعلة إلى جانب الإيمان، يُعلن بقناعة تامّة أنّ الإيمان دون المحبّة ليس بشيء ولا ينفع البتّة (١ كو ١٣: ٢)؛ ويتابع القول إنّ المحبّة هي الأعظم (١ كو ١٣: ١٣). ومن المفيد هنا الانتباه إلى أنَّ الرسول بولس غالبًا ما يذكر الإيمان مع المحبّة جنبًا إلى جنب[٢٥]، وفي بعض الأحيان في جملتين متوازيتَي الأجزاء، فيكون الجزء الثاني بمثابة تكرار للجزء الأوّل بكلام آخر (١ تس ١: ٣). غاية القول، إنّ تعليم الرسول بولس عن موضوع التبرير بالإيمان يفترض هذا الإيمان الذي يستعلن على نحوٍ مستمرّ من خلال تطبيق وصيّة المحبّة، وهكذا يغدو الإيمان ناموس حياة المسيحيّ (رج رو ٣: ٢٧).

(٢٥) أف ١: ١٥؛ ٣: ١٧؛ ٦: ٢٣؛ كو ١: ٤؛ ١تس ١: ٣؛ ٣: ٦؛ ٥: ٨؛ ٢ تس ١: ٣؛ ومرّات كثيرة في الرسائل الرعائيّة.

المسيح هو المعيار الوحيد للتبرير بالإيمان

يعلّم الرسول بولس أنّه، كما الإيمان يأتي من سماع كلمة المسيح وقبول الكرازة بالإنجيل، حسب ما شرحنا آنفًا، كذلك المحبّة أيضًا؛ فقد أصبح بإمكان المسيحيّ أن يتعلَّم المحبّة من مثالٍ حيّ موضوع أمامه هو محبّة المسيح. عندما أسلم ابن الله ذاته طوعًا إلى الموت من أجلنا، كي يخلِّصنا من الموت، عبّر بالفعل عن محبته اللامتناهية لنا(٢٦). ومن واجب المسيحيّ، كابنٍ حبيبٍ، أن يقتدي بالمسيح (أف ٥: ١؛ رج ١ كو ١١: ١)، سالكًا في المحبّة(٢٧) (أف ٥: ٢)، أي أن يحبّ دون حدود حتّى الموت. بسبب من هذا، يتوجّه الرسول بولس مخاطبًا أهل تسالونيكي ويدعوهم "متعلِّمين من الله"، θεοδίδακτοί، فيقول: "وأمّا عن المحبّة الأخويّة فلا حاجة لكم أن أكتب إليكم عنها لأنّكم أنفسكم متعلِّمون من الله أن يحبَّ بعضكم بعضًا" (١ تس ٤: ٩). إذًا، يعتبر رسول الأمم أنّهم لا يحتاجون تعليمًا إضافيًا "عن المحبّة الأخويّة"، لانّهم تعلَّموها من المسيح، الذي أحبَّهم وقرَّب نفسه من أجلهم ذبيحةً تكفيريّة: "واسلكوا في المحبّة كما أحبّنا المسيح وسلَّمَ نفسه من أجلنا قرباناً وذبيحةً لله"(٢٨). تعليقًا على هذا الموضوع يكتب الأستاذ ستويانّوس، Stoyiannos، الآتي: ليست المحبّة مبدءًا أخلاقيًا غير شخصانيّ، بل "تشبّهًا" (συμμόρφωσις) بمحبّة الله المتجسِّدة. من جهّة أخرى، نلاحظ أيضًا أنَّ الرسول بولس، عندما يطلب أعمالَ محبّةٍ من المسيحيّين، يعمد إلى تذكيرهم بأنّ الله الذي أحبّ الإنسان وأعطاه بالمسيح غفران جميع خطاياه، هو من سيكون مثال سلوك المؤمن تجاه أخيه: "وكونوا لطفاء بعضُكم نحو بعضٍ، شفوقين متسامحين كما سامحكم الله أيضًا في المسيح" (أف ٤: ٣٢). وعلى نحوٍ مماثل يحثّ الرسول الكورنثيّينَ على جمع المساعدات للإخوة في أورشليم، ويكتب إليهم قائلاً: "فإنّكم تعرفون نعمةَ

(٢٦) رو ٥: ٨؛ غل ٢: ٢٠؛ أف ٥: ٢؛ أنظر يو ٣: ١٦؛ ١ يو ٣: ١٦.

(٢٧) رج: Γ. Μαντζαρίδης, *Χριστιανική Ηθική*, τ. I, 158, 159.

(٢٨) أف ٥: ٢؛ أنظر رو ١٥: ١-٣، ٧؛ أف ٤: ٣٢؛ كول ٣: ١٣.

ربّنا يسوع المسيح، أنّه من أجلكم افتقرَ وهو غنيٌّ، لكي تستغنوا أنتم بفَقرهِ" (٢ كو ٨: ٩). ويتكرّر الأمر عينه في حثّه الكورنثيّين على أن يُعطوا بسخاء (٢ كو ٩: ٦ي)، حيث يلمّح إلى طاعتهم للإنجيل (آ ١٣)، وإلى عطيّة الله التي لا توصف (أنظُر آ ١٥). ونصادف فكرة مماثلة في الرسالة الأولى للبشير يوحنّا: "في هذا عرفنا المحبّة، أنّه وضَعَ نفسه من أجلنا، ويجب أن نضعَ نحن نفوسنا من أجل الإخوة" (١ يو ٣: ١٦).

وفي رسالة أخرى يُعطي الرسول بولس أيضًا مثال تواضُع المسيح وطاعته (فل ٢: ٥–٨)، لكي يُشجّع أهل فيلبيّي على اكتساب المحبّة، والسعي إلى الوحدة بالتواضع (فل ٢: ٢–٣)، والطاعة أيضًا (فل ٢: ١٢). هكذا يوضِّح الرسول بولس على نحو قاطع أنَّ "طاعة الإيمان"، أو بأكثر دقّة، "الإيمان كطاعةٍ"، يتماهى مع الإيمان الذي يظهر بأعمال المحبّة. **كلّ من يؤمن بالمسيح يطيعه، وإنّ طاعته تظهر قبل كلِّ شيء بتطبيق المحبّة التي تعلّمها منه.**

إنّ المحبّة غير المحدودة التي أظهرها الله بالصليب تكتسب أهمّيّة أساسيّة، لا على المستوى السلوكيّ بين الناس وحسب، بل على مستوى حياة المسيحيّ الروحيّة. إنّ محبّة المصلوب لم تترك أيَّ رغبة لدى الرسول بولس في العيش لنفسه بعد الآن، أو في طلب "البرّ الذاتيّ" (رو ١٠: ٣) بمحبّة غير أصيلة "تطلب ما لذاتها"، بل تراه بدأ يحسب نفسه مصلوبًا مع المسيح عندما عرف محبّته التي تفوق الإدراك (رج أف ٣: ١٩)، التي لم تتوقّف حتّى أمام الصليب. ويلخّص الرسول بولس هذه الخبرة في الرسالة إلى غلاطية كالآتي: "مع المسيح صُلبت، فأحيا، لا أنا بل المسيح يحيا فيّ، فما أحياه الآن في الجسد، فإنّما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبّني وأسلم نفسهُ من أجلي" (غل ٢: ١٩ج–٢٠). هذه الكلمات تصلح في كلّ زمان ومكان لكي تلخّص الحياة الروحيّة التي يحياها المسيحيّ. لقد أحبّنا ابن الله المتجسّد، وصُلب من أجل تبريرنا، لكي نحبّه، ونصلب معه، ونموت عن كلّ شهوات الجسد وأهوائه المُعيبة.

هكذا يتَّضح مجدّدًا أن المسيح هو معيار التبرير بالإيمان. كلمة المسيح ومثال محبَّته وتواضعِه هما ما جعل اكتساب التبرير ممكنًا، من جهة أولى، وكذلك إمكانيّة "الحياة للبرّ" (رو ٨: ١٠)، من جهة أخرى. **إنّ من يسمع كلمة المسيح ويقبلها، يُعلن بمحبّته غير الأنانيّة أنّه يؤمن بيسوع المسيح ربًّا ومخلِّصًا لحياته ولكلِّ العالم.** سوف يُطيع المسيح ويقتدي بالمحبّة التي تعلَّمها منه، وبواسطة الإيمان بابن الله ومعرفته سيبلغُ "إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح"(٢٩).

هكذا نغوص في عمق معنى القول: "المحبّة هي كمال الناموس" (رو ١٣: ١٠ب). والكلام هنا لا ينحصر بالناموس الموسويّ فقط، بل إنّ وصيّة المحبّة تلخِّص ناموس الإيمان أيضًا، لأنّ فعل المحبّة، كما ورد آنفًا، هو التعبير الأكمل عن طاعة الإيمان. والحياة في المحبّة، كما الإيمان كطاعةٍ أيضًا، هي نهج حياةٍ مختلف عن طريق الخطيئة: "محبّة القريب لا تصنع سوءًا. المحبّة هي كمال الناموس" (رو ١٣: ١٠). وعندما تكتمل هذه الأجزاء تتظهّر الصورة التي، بناءً عليها، قال الرسول بولس: "أفنبطل الناموس بالإيمان؟ حاشا، بل نقيم الناموس" (رو ٣: ٣١)، لأنّ الإيمان بذاك الذي علّمنا المحبّة الحقيقيّة وطاعَتَه، يستعلن بالمحبّة؛ وهكذا يُتمّم كلّ ناموس، بما في ذلك الناموس الموسويّ.

مجدّدًا، يتبيّن حقيقةً أنَّ "كلّ الأشياء من الله"؛ فإنّ الفضل في اقتناء المحبّة، التي سهّلت إتمام الناموس، يعود إلى المسيح وحدهُ، لانّه صار بأعماله، كما بأقواله أيضًا، معلِّم المحبّة بامتياز. وقد أضحى بمتناول الإنسان المؤمن، "كمُتعَلّمٍ من الله"، ما كان قبلُ مستحيلاً، أعني إتمام الناموس و"الحياة للبرّ" (رو ٨: ١٠).

(٢٩) أف ٤: ١٣؛ رج رو ١٢: ٢؛ ١ كو ١٤: ٢٠؛ فل ٣: ١٥؛ كول ١: ٢٨؛ ٤: ١٢.

"الافتخار قد انتفى"

إنّ طريقة الفهم هذه لقصد الرسول بولس من "ناموس الإيمان" لا تترك هامشًا لإبداء تحفّظات خوفًا من إمكانيّة اعتبار الإيمان إنجازًا يفتخر به الإنسان. كم هي عظيمة عطيّة الله، وأيّ شيء يمكن أن يضاهي به الإنسان الله؟ حاشا! لذا، يقول الرسول إنّ الذي تبرّر قد أصبح بعد تحرّره من الخطيئة عبدًا للبرّ (رو ٦: ١٦–٢٣). ولأنّ الرسول يعرف في العمق قيمة ذبيحة المسيح، يلفت انتباه الكورنثيّين إلى أنّهم اشتروا بثمنٍ كريم، ولا يمكنهم أن يكافئوا المخلّص بما يضاهي نعمته؛ فعليهم أن يعوا أنفسهم عبيدًا للمسيح (١ كو ٦: ٢٠؛ ٧: ٢٣؛ أنظر رو ٦: ١٨–٢٢؛ أف ٦: ٦؛ فيل ١: ١٦). و"كعبدٍ بطّال" لا يسوغ للإنسان أن يفتخر عندما يظهر إيمانه بأعمال المحبّة، بل الأولى به التذكّر دائمًا أنّه لم يفعل سوى ما وجب عليه فعله (قارن رو ١٣: ٨أ مع لو ١٧: ١٠). هكذا ينتفي كلّ منطلق للافتخار بإنجاز بشريّ تحقّق.

فضلاً عن ذلك، بالإيمان تبرّر الإنسان، فأصبح الإيمان بالمخلّص شرط تبريره (رو ٤: ٣، ٥؛ غل ٣: ٦؛ رو ١٠: ١٠) وكلّ الآيات التي تتطرّق إلى موضوع التبرير بالإيمان (على سبيل المثال: رو ١: ١٧؛ ٣: ٢٢، ٢٦، ٢٨، ٣٠؛ ٥: ١؛ ٩: ٣٠؛ ١٠: ٦؛ غل ٢: ١٦؛ ٣: ١٤، ٢٢؛ فل ٣: ٩). يُبرّر الإنسان بالنعمة مجّانًا (رو ٣: ٢٤)، فقط لاعترافه بالمسيح ربًّا، ولإيمانه بأنّ الله أقامه من الأموات (١٠: ٩–١٠)، وهذا لا يعني أنّ الإنسان حقّق تبريره، أو أنّه استحقّه بإيمانه. يبقى التبرير عطيّة من الله، وعطيّة الله لا تُقارن بما يقدّمه الإنسان. يعبّر القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم عن هذه الحقيقة بقوله: "ولكنّ الأمور التي هو أنجزها متنوّعة وكثيرة ومختلفة؛ فقد مات من أجلنا وصالحَنا...، وأعطانا نعمةً لا يُنطق بها؛ بيد أنّنا لم نقدّم سوى الإيمان فقط"[٣٠]. كيف إذًا يقوى الإنسان على الافتخار؟ يوضّح الرسول هذه الحقيقة عندما يتوجّه إلى أهل أفسس بالقول: "لأنّكم

(30) PG 60, 468.

بالنعمة مخلَّصون بالإيمان، وذلك[٣١] ليس منكم بل هو عطيّة الله؛ لا من أعمالٍ كي لا يفتخر أحد" (أف ٢: ٨-٩). وفي نصٍّ آخر يؤكّد للكورنثيّين انتفاء أيّ سبب للافتخار، فيقول: "وأيّ شيء لك لم تأخذه، وإنْ كنتَ قد أخذتَ، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ" (١ كو ٤: ٧). في تعليقه على الآية هذه، يحذّر القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم مستمعيه مسبقًا من الوقوع في مثل هذا الخطأ، يقول: "لأنّ الإنجازات ليست منك، بل من نعمة الله...؛ فإنّ ما أُعطي ليس لكَ بل لمن أعطاه". يفتخر الإنسان بإنجازاتٍ حقّقها هو، لا لما أخذه بالنعمة (أنظر رو ٤: ٢-٥). لم يقم الإنسان بأيّ إنجاز يسمح له بالافتخار، "فالكلّ من الله"، هو الذي أنجزها كلّها. وفقًا لقناعته هذه يكرّر الرسول بولس نصيحته ذات المعنى اللاهوتيّ العميق: "مَنْ افتخر فليفتخرْ بالربّ" (١ كو ١: ٣١؛ ٢ كو ١٠: ١٧؛ أنظر فل ٣: ٣).

خلاصة

لقد تجسّد "رئيس الإيمان" (عب ١٢: ٢) ومعلّم المحبّة، ليعلّمنا ناموسه المبرّر لكلّ من يُطيع إنجيله بإيمانٍ. أصبح للإيمان فحوىً ظاهرًا، عندما صُلب ابن الله، ذبيحة الكفّارة الإلهيّة التي تغفر الخطايا بالنعمة، وصار لوصيّة المحبّة القديمة مقياس جديد شخصانيّ نسعى إلى بلوغه، إذ ترتسم أمامنا محبّة المسيح الذي بذل ذاته من أجلنا.

إنّ إنجيل الله عن موت المسيح وقيامته هو التعليم الذي تسلّمناه، وعلينا أن نطيعه بإيمان ونسلك فيه، مبتعدين عن التسكّع في مناهج الخطيئة. وطاعتنا هذه تتجلّى بأعمال المحبّة المضحّية التي منه أيضًا تعلّمناها. ليس صليب المسيح إلاّ درسٌ عليه نتتلمذ ما حيينا. علينا أن نبقيه دائمًا نُصب أعيننا (٢ كو ٤: ١٠)، نطيعه، نتعلّم منه، نقتدي به. هكذا نُصبح للمسيح يسوع (أنظر غل ٥:

(٣١) اسم الإشارة "ذلك"، يصرّف كأسماء المحيّر هنا، يعود في هذه الجملة إلى الخلاص من الخطيئة بالنعمة، ولا يُمكن فهمه على أنّه يعود إلى الإيمان، فالإيمان اسم مؤنّث في اللغة اليونانيّة.

٢٤)، هكذا نكون مسيحيّين.

لكنّنا نعلم أنّ وصيّة محبّة الله والقريب ترد في الناموس الموسويّ أيضًا، إذ تأتي الأولى بين الوصايا العشر. ما الجديد، إذًا، في وصيّة المحبّة التي سلّمنا إيّاها المسيح؟ وكيف يربط الرسول بولس بين الإيمان بيسوع المسيح وتطبيق وصيّة المحبّة؟ وما هي بالتحديد هذه العلاقة التفاعليّة بين الإيمان والمحبّة اللتين تعلمناهما من رئيس الإيمان ومعلّم المحبّة؟

المراجع

القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم (PG 61, 475-476).

عقيدة التبرير – الإعلان المشترك للرابطة اللوثريّة العالميّة والكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة، ٤. ٣. ٢٥.

CRANFIELD C.E.B., *Romans - A Shorter Commentary*, 1985, 327.

FEINE P. , *Das gesetzfrei Evangelium des Paulus*, 1899, 191.

FITZMYER J., *Romans*, 137.

GUTBROD, art. νόμος, *ThWNT* IV, 1069, 15f.

HOFIUS O., "Gott hat unter uns aufgerichtet das Wort von der Versöhnung (2Kor 5,19)", *Paulusstudien*, 17-18.

HOFMANN J. C. V., *Die heilige Schrift Neuen Testaments*, 3. Teil (Brief an die Römer), 1868, 542-3.

KÄSEMANN E., *An die Römer*, 1980, 348. Π. Τρεμπέλα, *Ὑπόμνημα εἰς τὰς ἐπιστολὰς τῆς Καινῆς Διαθήκης*, τόμος 1, 192.

KUSS O., "Der Begriff des Gehorsams im Neuen Testament", *ThGl* 27, 1935, 699-700.

MANDILARAS G., The Verb in the Greek Non-literary Papyri, 96-97.

Μαντζαρίδης Γ., *Χριστιανικὴ Ηθικὴ*, τ. I, 158, 159.

MARXSEN W., "Der ἕτερος νόμος Röm.13,8", in: *ThZ* 11, 1955, 231.

MERK OTTO, *Handeln aus Glauben*, 165.

SCHRAGE W., Probleme paulinischer Ethik anhand von Gal 5,25-6,10, *La foi agissant par l'amour (Galates 4,12 – 6,16)*, Série Monographique de « Benedictina » - Section Biblico-Oecuménique, « Benedictina », Abbaye de S. Paul, Rome, 1996, 187.

STRACK H. & BILLERBECK P., *Das Evangelium nach Matthäus erläutert aus Talmud und Midrasch*, 1961, 357-359.

ZAHN Th. , *Der Brief des Paulus an die Römer*, (1910) 3. Aufl. 1925, 563 n. 81.

ZERWICK M. & M. GROSVENOR, *A Grammatical Analysis of the Greek New Testament*, 1996, 457.